إطلالة على وسام الميليشيا

بقلم يعرب السعيد

تجيء قصائد الشاعر « خالد ابو خالد » شاهدا آخر على ان شعر المقاومة لا يقف ساكنا ، بل هو « أداة » تتطور من خلال الارتباط الموضوعي الذي يشد « وعي الشاعر » للقضية ، فيجعل من الشاعر ـ حينئذ ـ شاهد عصر .

هذه « الاداة » نرى بشكل نموذجي ، وتكون ذات قدرة فاعلة على الاقناع والتأثير حين يتحزب الشاعر لقضية الشعب ، فتولد الكلمة المقاتلة من خلال مبدأ الانحياز الذي يثير الحيوية ، ويوقظ القابليات ، ويلهم المآثر في النضال .

يقف خالد ابو خالد ، مع كل شعراء المقاومة ، وقفة يعي فيها ابعاد المعركة بوضوح لكل المظاهر الموضوعية التي تشد المسألة بالماضي والحاضر والمستقبل الفسيح ، لذلك فهو يرسم ظله على الارض بمبادرة تاريخية واضحة ، ويتحرك من خلال رؤاه الجديدة الخصبة ، واصراره الايجابي المسؤول في الوقوف تجاه التحديات ، للبحث عن مرفأه المأمول .. حيث ينتصر الانسان ، وتتحرر المنابع ، وتسقط الاسوار .

ان رحلة الشاعر لم تبدأ في حزيران أو بعده ، وان التزامه بالقضية ليس نسخة منقولة عن شعراء المقاومة الآخرين ، ان اصالة الحرف ، عنده ، تنبع من الطرف الاول للخيط الذي يشده ، بعمق ، لقضية شعبه ، من الاغتصاب ابتداء . لذلك فان الجرح فيه ينزف ، وهو يحيا ويحس بانسانيته وثوريته من خلال هذا النزف ، شأنه في ذلك شأن مايكوفسكي حينما كان يلح :

ضع في قلبي دما
ملء عروقي

واذا ما حاولنا ان نربط هذا القول بقول شولوخوف : « اننا نكتب ما تمليه علينا قلوبنا .. وقلوبنا ملك لشعبنا الذي نخدمه بفننا » ، استطعنا أن نقول بأن الوعي والجرح يتلازمان معا في عملية تحويل الحياة .

وحين تجتمع التجربة الصادقة ، والشكل الفني الجيد ، يتم حينئذ التوصيل الموحي للاشياء ، بطريقة تستهوي القارىء في التفاعل مع الرؤية الجديدة التي تنبض فيها الاشياء بالمعاناة الواقعية الناضجة ، وبوضوح سافر حيث لا اثر لغموض متعمد او احباطات مفتعلة . وكأني بالشاعر « خالد أبو خالد » يومىء لنا بدخول عالمه الرحب ، ابتداء من قصيدته « بطاقات للعيد » المهمومة بالدلالات المميزة للشاعر كواحد من ابناء هذا الشعب العربي المشرد الذي يقاوم ويحارب ويشرئب ، فهو وريث النضال ، وهو بهذا النضال زعيم .. حيث استشهد ابوه في « دير غسانة » في معركة بين الثوار والجيش البريطاني :

« يا قبر أبي
يا نصبا ما غمرته شجيرة نار
« دير غسانة » ما كانت لعبة شطرنج في قصرين
كانت يا « يابا » مطرا احمر »

ومنها :

ما رحت سدى
ولسوف نضم القبر مسافات من نار
آه يا « يابا »
من « خلف ما مات »

ان ذات الشاعر ، هنا ، تبدو وكأن لها محتواها الديالكتيكي الواضح الذي يتفاعل مع التاريخ بحركة محددة ملموسة ، ويؤثر في مجريات التاريخ نفسه ... والصورة التي يرسمها الشاعر لنفسه في هذه القصيدة ليست تجريدية ، اذ هي تتجمع ، في نهاية المطاف ، وفق حتمية المسار التاريخي للقضية ... ووفق الوعي الايديولوجي لذهنية الشاعر عند حس موضوعي واقعي يطور الصورة وينميها ويخرج بها الى مضامين وأنماط ثورية حاسمة :

وكنت وعدت يا اماه بالعودة
ووعدي لم نزل ما مات
وعدي ان اعود معمدا بالنار
سألقى رفقتي يا أم لا تهني
أطل رفاقي الشجعان واجتازوا منافيهم

ان « العودة » ليست « نبوءة » .. ولذلك كان الشاعر منذ « النكبة » يحمل العودة لغتها وتراكيبها الخاصة ، وفي كل القصائد المقاتلة وقصائد الرفض نجد ، دون عناء ، الملامح الاحرفية لكلمة القتال ، نجدها تنبع من أصالة التراث ، تلتصق بشعارات الامة ، مهما بعدت ، حينما تهب هذه الامة للقتال ، ولا شك ان أصالة الروح التاريخي العربي واضحة في التراكيب الواردة بعفوية ذات جرس جميل : « يا أم لا تهني » ، « وكنت وعدت يا اماه بالعودة » ، « أطل رفاقي الشجعان » . هذا التعامل الرشيق للكلمة بين القديم والجديد يضع الصورة في اطار ضرورات تاريخية ملموسة ، والشاعر لا ينفك يتوسل حتى بالمفاهيم الشعبية الدارجة ، من اجل ان تكون الكلمة موحية ليس بالنضال من اجل النضال وحسب ، بل ومن اجل القضية ـ بحتميتها التاريخية ـ ، بالمقاتلين من أجل هذه الحتمية .. وبالشهداء ايضا . ولئن قتل ابو الشاعر ، فان صوت الابن يجيء بواقع ملموس يشبه العفوية الساذجة « آه يا يابا .. من « خلف ما مات » ، وعند هذه المقولة يستوي المثقف والسوقي بوعي لمفهومها المتوارث عبر العصور والاجيال .. فالارض السليبة المحتلة لها وارثوها ، وكأني بصوت الشاعر من خلال هذا المثل الشعبي الدارج يصرخ : « ان قتل ابناؤكم انجبوا غيرهم ، تلك هي المسؤولية التاريخية في أعناقكم جميعا تجاه الارض والقضية » . وحيث يريد الشاعر لكل الاشياء ان تتحرك .. ان تحيا في قلوب جيل المستقبل ، فهو يكتب بالجرح تاريخ ارضه المغتصبة وانسانها المشرد ، ويربط التاريخ بانسان المستقبل ، وهذا واضح في قصيدته « وسام على صدر الميليشيا » ، اذ لا نكاد نميز هل ان الشاعر يعني بيسان الارض ، ام هو يعني بيسان الصغيرة .. ابنته ، ولكننا لا نحار طويلا ، فأرضه وابنته بيسان واحدة :

واجهشت حبيبتي « بيسان »
تسألني
ماذا لديك ؟
لديّ بندقية

معي من الرجال عشرة
وأحمل القضية

وحين تنصهر كل الاشياء في المعركة ، الوجود الذاتي .. اللغة .. الانتماء ، تهوي ـ حينئذ ـ كل الحدود الفاصلة بين الشاعر وثورته ، فيتعمق عنده الاحساس الكلي .. الجماعي .. الشعبي ، الذي يثري التجربة الشعرية برؤى اخرى تعبر عن عمق هذا الاحساس الجماعي ووجدانه ، فنرى الشاعر ، مثلا ، يستعمل لغة الحياة اليومية ، في بناء شعري ، هو في الحقيقة نوع من الاستخدام الذكي للالفاظ الذي يوقظ في القارىء شتى الايحاءات التي تشده الى دلالات وجدانية ، وتحول الاحباط الى معاناة :

قال المعنى والاسى كاويه
والدم يا ويلي .. بحور بحور
واللي تكوم عالجبال اليوم
البارحة يا عزوتي .. كانت عمارة الدور
تحت الردم شعبي بقلب النار
والنار ماتت يا حبايب وانطفت
والارض ولدت عالدى .. ميليشيا .

ان الشاعر لم يخترع ، بالطبع ، لغة جديدة ، ولكنه ادرك ، بصدق ، المرامي النفسية والوجدانية لهذه اللغة ، فاستخدمها في اثارة عذابات الشعب وتحويل تلك الاثارة الى سبب من اسباب الوجود الذاتي للشعب وقضيته ، والميليشيا ، تولد من تلك العلاقة الديالكتيكية المعقدة ، ويولد معها الالحاح الايجابي التاريخي ، والدلالة الروحية التي تنصهر عندها القضية بالانسان : « معي من الرجال عشرة ... وأحمل القضية » .

ولشعراء المقاومة انتماءاتهم الفكرية التي تضفي على قصائدهم بشكل مسؤول ألوانا من الحس الايديولوجي الحاسم ، ذلك لان الشاعر حينما يرى نفسه يصلب امام عينيه ، فان الانتماء عنده يكون ، حينئذ ، مبادرة طبيعية تجعل منه الشاعر الفاعل ، والمقاتل المتحدي ، وتتجمع في تجربته الشعرية كل امتدادات القضية واطرافها من اجل تصعيد عملية الخلق الشعري الى مستوى الانتماء، وجعل تلك التجربة نتيجة انصهار الذات بالموضوع ، ذات حركة دينامية دافقة تنتفض خلال لغتها ابعاد المسالة بكل عمقها واصرارها . وخالد ابو خالد اذ يلتقط ، بمهارة وقابلية مميزة ، انواعا من التعبير المالوف والتركيب اللغوي البسيط ، فانما يحاول ، كما ارى ، ان يعطى التجربة مدلولا قوميا آخر ، وان يبسط الامر للجماهير بلغة الجماهير ذاتها ، باعتبار ان لغة الجماهير عنصر نابض وايجابي من عناصر القضية ، وان لغة الحياة اليومية ذات دلالات وجدانية ونفسية تلتصق بروح الامة وضميرها ، وبهذا يكون الشاعر قد ادرك تماما ان التكوين الشعري يجب ان ينطلق من الداخل والخارج معا ، متوسلا بكل الاسباب التي تجعل من هذا التكوين عملا واضحا ومؤثرا دون ان يحده فى ذلك حذر او اتهام . يقول في قصيدته « اصداء الشجرة المقطوعة » :

فقصصت من ألمي ومن غضبي
(الدار مقفرة والمزار بعيد)

ومنها :

طفل جفاه الصوت ودعني
ما قال حتى (الدار
دار أبونا
واجو الغرب يطحونا)

ومثل هذا كثير في القصائد الاخرى .. تراكيب لغوية دارجة تثبت الملامح الايجابية لشعر خالد الذي يرتبط فيه الوعي بالفعالية ، والايقاع بالمضمون ، وببساطة وشعبية بلغت مقدارا مذهلا من التحدي والاثارة .

وان « خالد ابو خالد » شاعر لا يمكن اغفاله ، فهو واحد من شعراء المقاومة ، قصائده تمتلىء بصدق التجربة ، يحمل صليبه في متاهات الاغتراب يبحث عن هويته من خلال موقعه كمقاتل ، لكن الغربة عند هذا الشاعر لا تعني الانهزام والضيم والاذلال لانه ينطلق ، في كلماته ، من الجذر العميق لشعب وأمة وتاريخ ، وهو بلا شك ذو احساس تاريخي واع ، يحمل في عظامه عذابات جيله ، ولهذا فالصورة عنده ، رمزها وواقعها ، تتخلق دائما من انتسابه لارضه، ومخاضات زمنه الضاج بتحرك كل الاشياء من أجل انتصار الانسان في كل مكان .. ففي قصيدته « للرجال والبحر » والتي يهديها الى رفاقه شعراء الارض المحتلة ، نجد هذا الاحساس التاريخي ينساب بعفوية وأصالة ذات مضمون نفسي يضغط حركات الاشياء ، ماضيها وحاضرها ، من اجل أن تبدو بوضوح « مهمة المستقبل » التي يحملها الشاعر :

ونولد من سهوب الجوع
من عرق الفؤوس
ومن سحاب الدم
من صهب المناجل ، والرصاص ، وغابة « السبخات »
بالالم المعتق يولد الفقراء
في الزمن الذي يمتد بين الظل والنور

وحيث نستمر في قراءة هذه القصيدة ، نجد ثمة عشر مفردات، ذات ترابط حيوي عضوي ، هي بالاساس تقسيمات موضوعية لوعي الشاعر بالقضية عبر الميلاد ، والكلمات ، والمعرفة ، والذكريات ، والحكايا ، فيكاد يكون كل مقطع من مقاطع هذه القصيدة مناقشة نموذجية للوعي الذي يتمخض في النهاية عن (عصر جديد) هو (عصر البحر) الذي لا بد ان يغرق سور السجن والماخور والملهى ، فينكشف الزمن ـ حينذاك ـ عن ساحل وفنار وميناء :

اكراما لعينيها
ويغرق قارب واثنان
تغرق ألف صارية
ومليونان او اكثر
وتغرق كلها الكلمات والقصر
... ولا يبقى سوى بحارة العصر الشباب

وليس من شك ان قصيدة خالد لرفاقه شعراء الارض المحتلة تختلف عن كثير مما قرأناه من قصائد ، لشعراء آخرين ، بهذا المعنى ، فحين تكون التجربة ذات بعد واقعي وصادق فانها تخرج عن كونها جرحا انفعاليا الى معاناة فاعلة ، وحين يكون الشاعر ذا انتماء حاسم ، فان وعيه ينطلق حينئذ من ضمير شعبه وحسه الجماعي والايديولوجي ، ولهذا فان خالدا سيظل دائما ذا طابع منفرد ومتميز ، فهو يحمل في عمقه نقاء المقاتل المهموم بالثورة ... الملزوم بالزمن . الحرف ، عنده ، ينطلق من هويته التي انضجته ، فالحرف اداة ، والكلمة ناضجة ليست زاعقة ولا واخزة او ناشزة . ان قصائد هذا الشاعر ذات دلالات واقعية تتحرك بكل اتجاه لتخلق في القارىء أجواء « القراءة المعاناة » التي تهز في النفس شتى القابليات على الادراك والتخطي .

العراق ـ البصرة — **يعرب السعيدي**